اقترابات من رباعيات المجذوب

الدكتور عبد القادر فيطس

أستـاذ محاضــر(أ) بجامعة الجلفة . الجزائر

مقدمة :

دون شك أن الأدب الشعبي يحمل قيما في نصوصه التي تعالج قضايا المجتمع، انطلاقا من مشاغل الإنسان في حياته وبيئته وعلاقته مع الآخرين، وما يسجل من أحداث تؤرخ لفترات من محطات حياة الأفراد و الشعوب. وفي زخم الحياة المتلاطم بدأ الناس يتذوقون ويتعاطون هذا الإبداع الذي يعبر عن ذواتهم وحالهم، فهو فن وتعبير ثقافي رابط بين ماضيهم وحاضرهم. و الحديث عن الأدب الشعبي هو حديث عن الموقع التاريخي للتراث الشعبي الذي يمثل اتجاها معرفيا خصبا و إنتاجا إبداعيا ثريا يحتاج دراسة موضوعية ترتبط بمسؤولية حضارية تتعلق بالمصير المعرفي و الثقافي المساير لكل التحولات. فالأدب الشعبي لم يكن عارضا في حياة المغاربة بل مكونا رئيسيا في نسيج مجتمعاتهم ويحوز مكانة رفيعة في حياتهم، فقد كانوا يعشقون سماع الشعر الملحون ويتفاعلون مع أشكال التعبير الشفوية كالأمثال و الحكم و الألغاز ...، وذاكرة الإنسان المغربي تنتقي من ما هو جميل و أصيل، وما يلائم حالته.

ومن هذا ارتأيت التحدث عن علم من أعلام الحكم و الأمثال الشعبية الذي ذاع صيته برباعياته الشعرية المتضمنة أمثالا وحكما للوعظ و الإرشاد و النصح و التوجيه و التصريح بما ينفع الناس، و أضحت هذه الحكم و الأمثال الرباعية متداولة بين الناس، وتمثل صورة جميلة لاتجاه متميز في الشعر الملحون العربي. إلا أن العامة من الناس لا يفرقون بين عبد الرحمان المجذوب الذي تنسب له الرباعيات الشعرية و أحمد المجذوب أحد الأولياء بمنطقة عسلة التابعة لولاية النعامة تقام له سنويا وعدة باسمه ذات طابع فلكلوري. دون أن يغيب عنا أن هذه الرباعيات بعضهم ينسبونها للولي الصالح عيسى الأغواطي الذي عاش في القرن الثاني عشر للهجرة.

ويبدو أن الثابت مما هو مدَّون تنسب لعبد الرحمان المجذوب المغربي، حسب الذين أشاروا أو درسوا هذه الرباعيات الشعرية مثل الشيخ محمد المهدي الفاسي المتوفى سنة 1109 هـ في كتابه ابتهاج القلوب بخبر أبي المحاسن وشيخه المجذوب. هذا الكتاب أورد فيه ترجمة مفصلة ووافية عن حياة المجذوب و اكتفى بالإشارة إلى الرباعيات (ليس معنى المجذوب يفاقد الحس و التميز كما يفهمه كثير من الناس، فلم يكن مغلوبا على نفسه منقطعا عن الدنيا، بل كان شأنه شأن الكمَّل من إقامة الوظائف الدينية و الرسوم الشرعية و تأدية الحقوق وعدم الإخلال بشيء منها. وكان له أولاد وزاوية يطعم فيها الطعام للواردين عليها من الغرباء و أبناء السبيل وغيرهم، وكان يجري على لسانه كلام موزون من الكلام الملحون على لسان أهل العرف و أوزانهم الشعرية، يحفظ الناس كثيرا منه ويتداولونه بينهم في مجامعهم و أذكارهم، وقد اشتمل على حقائق و إشارات سنية وعبارات ذوقية يفهمها الذائقون ويعترف بغور مغزاها

العارفون، و أمور غيبية من الحوادث و القضايا الاستقبالية. وقد وقع كثير مما أخبر به و أشار إليه، وكان من شيم الأخلاق بمكان مع سخاوة نفس و إيثار وكثرة البذل)[1]

ومن الذين أكدو نسبتها لعبد الرحمان المجذوب المستشرق الفرنسي هنري دوكاستر و الشيخ محمد بن شنب، و الأستاذ نور الدين عبد القادر الذي تيقن من 126 رباعية قام بتصنيفها وشرحها، وذكر حياته في مواقع متفرقة، أشار إلى بعضها في المقدمة وبعضها في الخاتمة. كما لا ننسى الباحث ميلود بلبشير من جامعة تلمسان الذي تقدم برسالة ماجستير موسومة بـ : الحكمة الشعبية في رباعيات المجذوب لعام 1994-1995، تحت رقم : A.T.M 19 ويتضمن بحثه رصد الحكمة الشعبية في هذه الرباعيات معتمدا على دراسة المستشرق الفرنسي هنري دوكاستر les gmomes de sidi abderahman el medjedoub. ودراسة نور الدين عبد القادر

وقام بتطبيق محاور وموضوعات هذه الرباعيات مع التركيز على قيمة لغتها من خلال الألفاظ و القواعد النحوية و الصرفية و الأوزان. ولكنه ركز على الحكم دون الامثال.

ترجمة عن حياة المجذوب : هو أبو زيد عبد الرحمان المجذوب بن عياد بن يعقوب بن سلامة الصنهاجي الدكالي، ولقب المجذوب جعله له أهل زمانه وبقي معروفا به إلى الآن نظرا لسيرته في حياته، فكان صوفيا زهد في الدنيا وساح في البلاد للوعظ و الإرشاد و التصريح بما ينفع العباد[2] .

وقد عاش الشيخ المجذوب غير مبال بالمال و الجاه متنقلا من مكان إلى مكان ليس له مأوى يستقر به على الدوام، و أصله من قرية تيط بقرب أزمّور شمال مرسى الجديدة على ساحل المحيط الأطلسي غير بعيدة عنها، ثم انتقل إلى مكناس إحدى كبرى مدن المغرب الأقصى[3]، وترجع ولادته إلى أوائل القرن 10 الموافق لأوائل القرن 16 الميلادي، وبالضبط عام 1503م[4].

عاش مدة بالهبط (الغرب) ولما أحس بقرب الاجل طلب أن يذهبوا به إلى مكناس، فتوفي في الطريق بجبل عوف، أو بين ورغة وواد سبو، ودفنوه خارج مدينة مكناس بجوار باب عيسى وضريح السلطان مولاي اسماعيل وذلك سنة 976هـ، ولا زال قبره موجودا إلى الآن، وبقيت أقواله سائرة عند الناس في جميع أقطار افريقية الشمالية[5] .

ويقال أنه ذهب إلى الجزائر ثم تونس ولا زالت منطقة طولقة التابعة لولاية بسكرة تذكره، حيث يوجد إلى اليوم مسكن أثري يدعى دار المجذوب.

مضمون الرباعيات :

الرباعيات عبارة عن أشعار تتألف من بيتين لهما قافية واحدة، ولهذين البيتين أربعة أشطر، فجاءت على شكل رباعي[6]، كل رباعية تحمل فكرة واحدة لها دلالة تصويرية في الواقع من منطلق التأمل أو الحدث أو التجربة او الموقف، تتخللها صور فنية وموسيقى شعرية تعكس حالة الشاعر و الموقف الذي يكون فيه، ولسهولة هذه الأشعار الرباعية التي جاءت في شكل امثال وحكم، فقد كان

من السهل أن تتداول بين الناس، وتنتشر بسرعة ضامنة بذلك بقائها وخلودها في ذواكر الناس. وموضوعات الرباعيات تحث على الخير و الفضيلة و الأعمال الصالحة و الاخلاق و العادات الجارية كما شاهدها وعاشها صاحبها.

ومن العسير الإلمام بها جميعا. ولكني اخترت نزرا منها، وبالضبط المشهور منها وتحفظها ذواكـــر الجزائريـــن و أقف عندها بالتفسير، ومدى مطابقة تصويرها للواقع المعيش، و إبراز قيمتها، منتقيا الرباعيات التي تجمع بين الأمثال و الحكم.

موضوعات الرباعيات :

- الصداقة ومخالطة الناس و أصنافهم
- النصح و الإرشاد و التحذير من سوء العواقب
- المال و العمل وما يدور في كنفهما
- الصبر و الحكمة منها
- الصمت وكتمان السر
- الدعوة إلى التدين
- المرأة و أصناف النساء

منذ الوهلة الأولى يقر المجذوب بأن كلامه رباعي مقسم إلى أربعة أشطر يحوي أمثالا وحكما كما في قوله :

كسبت في وجبـــت كـــلام
لدهـــر معـــزَه رباعـــــي
مـــــاذا مـــن ويقـــول اعطـــاني
عـــطاه ربـــي ذراعـــي[7]

أنموذج من الرباعيات :

من خالط لاجواد جاد ومن خـالط لارذال زاد
بجودهم عنـــــاه
ومن جاور برمه انطلى ومن جاور صابـون
بحمومها جاب نقاه[8]

يقصد الصحبة و المخالطة اللتان لهما تأثير ظاهر في توجيه سلوكات الناس، فهو يدعو إلى اختيار الأصحاب، وحسن انتقائهم.

* * *

نوصيك يا حارث ولشيـــــح فيـــه

لشيـــح لمـــــروره
اللي تظن وتقطـــع تاتيـــك منـــه
عليـــه لضـــرورة[9]

وفي قوله :

نوصيـــك يا حارث ولـــدوم كثـــرو
لـــدوم انفاعـــه
لـــدم مـــا يا ويـــح من خانه
ينفـــع لـــدم ذراعـــه[10]

المقصود أنه يخاف شر أقربائه، ويتعجب فيما إذا عجز الإنسان عن العمل بسبب من الأسباب فلا يجد من يعينه حتى من ذويه و أقاربه.

* * *

للفـــت ولات وتنبـــاع بالســـوم
شحمـــه لغـــالي
في لقلـــوب ما شفـــت حـــالي
بقات رحمـــه يالعـــالي [11]

المقصود أن الناس فقدوا مقاييس التمييز وفضلوا الأشرار على الأخيار بسبب المادة، فهو يتأسف على هذه الحال ويرجعها إلى ضعف الإيمان وفقد الرحمة من قلوب الناس

* * *

مهبـــول من يحرث في شـــط مـــالح
لفـــول يلوحـــه
مهبـــول من ياخذ في صاحـــب عوَض
لقـــول روحـــه[12]

كا من يفقد مقياس التمييز يصفه بالمهبول، و الظاهر أنه يقصد من نقص المدارك العقلية أن يزرع الإنسان في أرض غير صالحة، وهذا ينطبق على المعلم او الصانع، فإنه ينبغي له ان لا يضيع وقته على من ليس فيه قابلية للتعلم مثل من يستمع إلى القول السيئ في صديق مخلص ويعمل به لا حجة ولا دراية، فمن السخافة ان نضع قولا ليس في موضعه.

* * *

لدنيـــا مثلتهـــــا تتركـــب مع جميـــع
دلاعـــه لـــدلاع

مجلة آداب جامعة الجلفة العدد 15 ديسمبر 2014

لحـــــاذق يعطي ولجايــح غدا
معها ساعه معـــاها قاع[13]

يرى المجذوب بان الدنيا تنقلب من يوم إلى آخر، و أن العاقل و الفاطن هو من ذاق حلاة الدنيا ثم رجع عنها وتركها، وركن إلى التدين و العبادة عكس غير العاقل الذي يغتر بها ويبق منهمكا فب ملذاتها وشهواتها .

* * *

لشـواف يشوف من ولغربال تشـــوف منه
قاع لقعصه قاع لناس
لكيس يعفس على ولعـــوام يعـوم بحر لا
راس للفعـــه يقاس[14]

يقول أن الإنسان العاقل البعيد النظر، والثاقب الرؤية يستخرج من الحوادث وواقع الزمان ما عسى أن يطرأ في المستقبل، و الذي نظره سطحي لا يرى إلا ما ينظر إليه العامة، و العاقل يمر على الصعوبات من دون أن يلحقه أذى ويقتحم الشدائد ولا يقع في عثرة من شأنها أن تسيء إليه.

* * *

لصمـــت لذهـــب ولكـــــلام يفســـد
لمسَجـــر لمسالـــــه
إذا شفـــت لا و إذا سالـــوك قول
تخبـــــــر لا لا [15]

لصمـــــت ومنـــــه تتفـــرق
حكمـــــــــه لحكـــام
لو ما نطـــق ولد ما يجيـــه وليد لحنش
لايمامـــه هايم[16]

وقوله أيضا :

نوصيـــك يا في لبيـــــر ارم
واكـــل لراس عظامـــــــه
اضحـــك و ألعب فمـــك متن له
مع لناس لجامـــه[17]

مجلة الديوان جامعة الجلفة العدد 16 ديسمبر 2014

هذه دعوة إلى فضيلة الصمت و الإلتزام بالسكوت كخلق ينقذ صاحبه من الزلات، لأن سلامة الإنسان في حفظ اللسان .

* * *

مزيـــن لنسا لو كـــان فيهـــا
بضحكـــات يدومـــــوا
لحـــــوت وهمـــا بلا مـــا
يعـــــوم في لما يعومـــوا[18]

وفي قوله :

ســـوق لنسا سوق يا داخـــــل رد
مطيـــار بالـــــــك
يوريولـــك من ودرولـــك راس
لريح قنـــطار مالـــك [19]

وقوله أيضا :

لا يعجبـــــــك في لواد دايـــــر
نوار دفلى ظلايـــــل
لا يعجبـــــك زين حتى تشـــوف
طفلـــه لفعايـــل[20]

وقوله أيضا :

بهـــــت لنسا من بهتهـــم جيت
بهتيـــــن هـــــارب
يتحزمـــــو ويتخلخلـــو
باللفـــــاع بالعقـــارب [21]

وقوله أيضا:

كيـــــد لنسا ومن كيدهـــم با
كيديـــــن حـــــروني
راكبـــه على ظهر وتقـــول لحدا
لسبـــع ياكلـــوني[22]

هذه الأمثال يتعجب فيها من مهارة النساء وقدرتهن العجيبة على التمثيل و الإغراء.

التشكيل الفني :

مجلة التراث جامعة الجلفة العدد 15 ديسمبر 2014

إن هذه الرباعيات تمثل انزياحا عن النمط اللغوي، لأنها تجاوزت اللغة العادية التي هدفها الخطاب المباشر وبالتالي التواصل المباشر، فلغة الشاعر ليست فصحى وليست عامية، فهي لغة وسطى بينهما تنحدر من أصل فصيح ولكن طرأ على بنيتها تغيير في الجانب الصوتي من حيث النطق.

و الشاعر اختار مادته اللغوية من رصيده، وفقا للصور التي ينتقيها ويستخدمها لمقتضى تأدية المعنى لما يتقبله المتلقي ويفهمه، ليتجاوب معه، انطلاقا من تعبير الشاعر عن حال مجتمعه ومواقفه.

فلغة الشاعر عفوية، تلقائية، بسيطة، مستأنسة، قريبة من عامة الناس، لا صعوبة فيها ولا كلفة في استعمالها، ولا يجد السامع مشقة في فهمها بل في حفظها، فهي مهيئة لذهنه ولذاكرته.

على مستوى الألفاظ : استعمل الشاعر ألفاظا قريبة من الفصحى ولكنه لم يلتزم فيها قواعد الإعراب و النحـــو و الصرف إلا نادرا.

على مستوى النحو: هذه القواعد غير محترمة، و إذا ما صادفنا احتراما فهو قليل جدا، فقد يكون ذلك قد حدث بتلقائية فرضها الخطاب الشعبي.

على مستوى رسم الكلمات : وقع إخلال في البناء الشكلي للكلمة ويظهر ذلك جليا في تحويل همزة القطع إلى همزة وصل، وكذا إعلال الهمزة بالحذف و القلب، واستعمال واو الجماعة مكان نون النسوة، واستعمال السكون للأسماء، و الإستغناء عن بعض الحروف، وحذف الهمزة بعد المد، ونطق الهمزة و اثباتها في اول حروف الاسم الموصول (للي)، وحذف الحرف الأول من أسماء الإشارة (هذا ذا)، وحذف حرف الذال من الأسماء الموصولة (الذي للي)، وتسكين الحرف الأول و الحرف الأخير من الكلمة، وحذف الهمزة المسبوقة بمد في آخر كل كلمة (النساء النسا)، ورفع المجرور ونصبه وتسكينه، وحذف الهمزة من الضمائر (أنا نا) ، (أنت نت) ..... وتكرار بعض الكلمات للمحافظة على وزن الرباعي، واستعمال التضاد بكثرة لتوضيح المتناقضات في الحياة. مع الإشارة إلى أنه لا يوجد دخيل أجنبي في لغته.

على مستوى الجملة :

- غلبة الأفعال على الأسماء
- غلبة الجمل الفعلية في معظم الرباعيات
- حافظت الجملة على أركانها مثل الشعر المعرب. باستثناء التغاير الذي يحدث في الكلمات العامية .

على مستوى الأوزان : لا تخضع اوزان المجذوب لأبحر الخليل، و إنما تشبه الشعر الدوري مثل قوافي أدوار الموشح، فقد جاءت في شكل بيتين لهما قافية واحدة، ولهذين البيتين أربعة أشطر، فجاءت على شكل رباعيات، كل رباعية تحمل فكرة واحدة.

خاتمة :

إن من أهم الملاحظات المستخلصة من الرباعيات إنها سلسلة شعرية تزاوج بين الأمثال و الحكم، أكثرها حكم أي 90% . وفي حدود 10% أمثال مصبوغة بنصائح ومواعظ و إرشادات نابعة من خبرة واسعة ومقدرة عالية وذوق رفيع، تعالج قيم إنسانية أصيلة من خلال براعة القائل وعصارة تجاربه في التصوير وربط العلاقات بالأحداث و المواقف و الواقع المعيش كما هو عليه وليس كما ينبغي أن يكون لتحقيق مبتغى مرصود لذاته.

كما ان هذه الرباعيات كرست خطابا متميزا لا يتجزء من التراث الثقافي العربي وعراقة المبادئ الدينية، فالقائل عايش واقع عصره بكل أحداثه و وقائعه وتغيراته، ورسم صورة عن حياة أبناء المغرب العربي في عاداتهم وتقاليدهم وصور جوانب عديدة من حياتهم الاقتصادية و الاجتماعية و السياسية و الثقافية و الدينية، وساعد الأجيال اللاحقة على أن يطلعوا ويفيدوا مما في الذاكرة الشعبية. كما أن بعض أشعاره جفرية تنبأ فيها بحوادث وقعت بعد عصره.

وفي الأخير لا أدعي أنني توصلت إلى أكثر من وضع بعض الاستفهامات التي ارتسمت أمامي و انأ أقرأ هذه الرباعيات التي تحتاج إلى دراسة وافية وقراءة جديدة برؤية أكاديمية جديرة بالتحليل، للتعمق في لغتها وصورها وموسيقاها فنيا وجماليا.

الهوامش و الإحالات :

1- نور الدين عبد القادر، القول المأثور من كلام الشيخ عبد الرحمان المجذوب، المطبعة الثعالبية، الجزائر، دت. ص : 51 نقلا و بالتصرف عن : محمد المهدي الفاسي، ابتهاج القلوب بخبر أبي المحاسن وشيخه المجذوب.

2- المصدر نفسه، ص: 94

3- المصدر نفسه، ص: 01

4- المصدر نفسه، ص: 01

5- المصدر نفسه، ص: 02 و 03

6- الرباعي: نشأة هذا النظم (الرباعي) ينسبه اللغويون الفرس إبتداعه إلى طفل كان يلهو بلعب الجوز مع رفاقه، فسقطت جوزة بعيدا عن الحفرة، ثم انكفأت متدحرجة، فصاح الطفل : " غلتان غلتان هصي رود تابون كوا " ومعناها بالعربية " تتدحرج حتى تهبط إلى قرار الحفرة" ، ويذكر هؤلاء اللغويون إنما نطق به ذلك الطفل هو مصراع من الشعر يصلح النظم عليه ، وقد تلقفه الشعراء و أضافوا إليه مصراعا آخر ، ثم عقبوا عليه ببيت فأصبح النظم يتألف من أربعة مصاريع . و أخرون ينسبون إختراع الرباعيات للشاعر جعفر رودكي (ت 940م) وبعض النقاد يطلقون على شعر الرباعيات بالشعر الدوري مثل أدوار الموشح، و أقدم الرباعيات في الشعر العربي تنسب لأبي الفرج حسين بن محمد (385 هـ).

7- المصدر نفسه، ص: 02

8- المصدر نفسه، ص: 34

9- المصدر نفسه، ص:65

10- المصدر نفسه، ص:06
11- المصدر نفسه، ص:10
12- المصدر نفسه، ص:25
13- المصدر نفسه، ص:26
14- المصدر نفسه، ص:70
15- المصدر نفسه، ص:07
16- المصدر نفسه، ص:07
17- المصدر نفسه، ص:08
18- المصدر نفسه، ص:12
19- المصدر نفسه، ص:13
20- المصدر نفسه، ص:19
21- المصدر نفسه، ص:28
22- المصدر نفسه، ص:29

.....

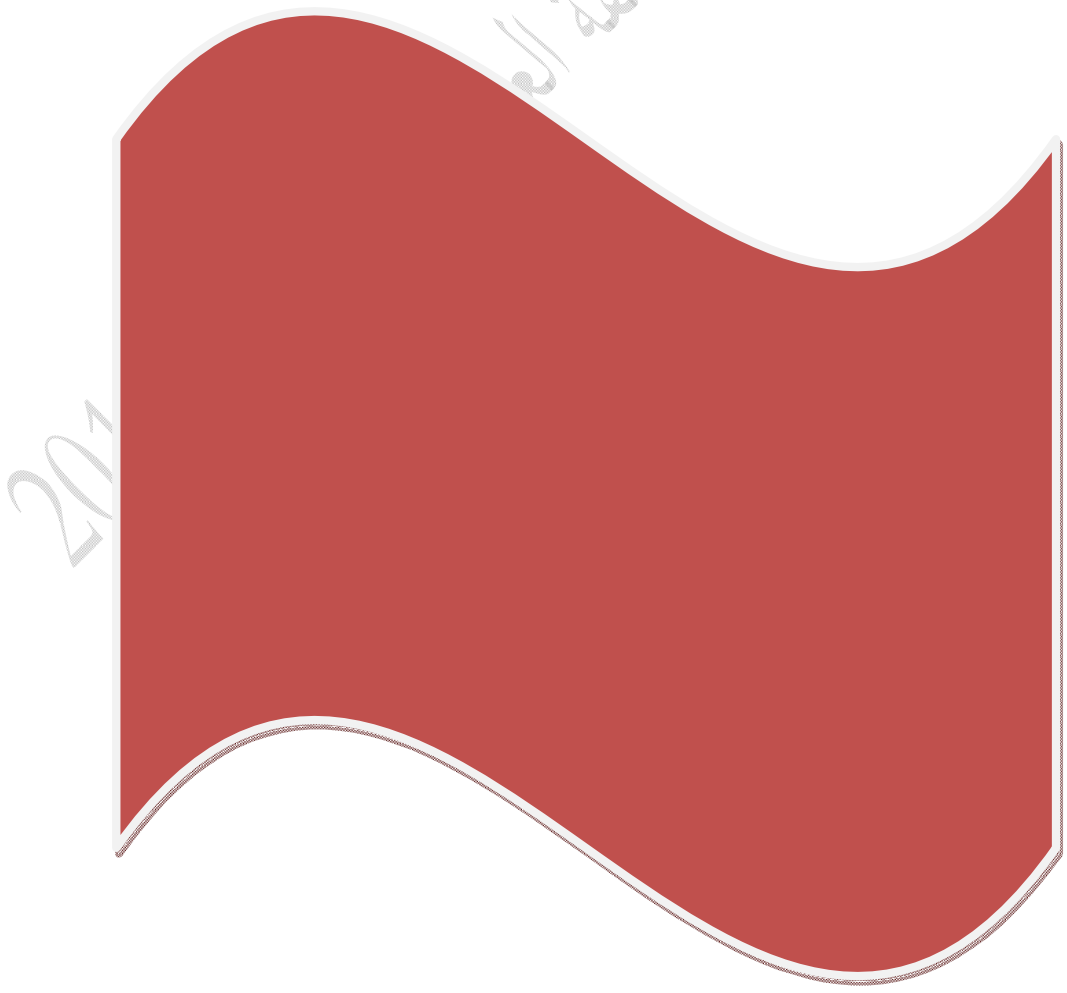

مجلة الآداب جامعة الجلفة ال 201